كيف نقرأ؟ تاريخ الآل والأصحاب

الحمد لله الذي جعل تاريخ المسلمين الأوائل مشرقاً نقياً، والصلاة والسلام على من بعثه الله هادياً نبياً، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ومن كان تقياً.

أما بعد: فإن صيانة تاريخنا الإسلامي المجيد، واستنقاذه من أيدي العابثين، وكذب الحاقدين وجهل الجاهلين، من واجبات أهل العلم والمعرفة، فلا يترك بأيدي المستشرقين يتخذونه غرضاً، ولا بأيدي المتخاذلين- سهواً أو عمداً- لينتقوا منه ما يشين الأجداد والأمجاد، فيأخذون هذا ويتركون ذاك، لحاجة في نفوسهم، والله مخرج ما يكتمون.

وفي هذا العصر نجد شعوباً وأمماً تحاول أن تصنع لها تاريخاً، فتجمع الأحجار والأوراق، وتحفر الأنفاق، وتهدم المنازل، على أمل العثور على هذا التاريخ المزعوم، وليس هذا حال تلك الأمة فقط، بل هو حال الكثير من الشعوب في هذا العصر، بل وفي كل عصر.

فما بال أمتنا، لديها هذا التاريخ المشرق مخطوطاً ومطبوعاً ولا يولونه اهتماماً؟!

من هذا المنطلق كان لزاماً علينا قراءة تاريخنا قراءة تمحيص وتحقيق، وغربلته مما يشوبه، وتنقيته مما اختلط به، ليخرج مشرقاً ناصعاً نقياً، فينفع الناس، ويكون كما قال ربنا عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الرعد: ١٧.

لذا كانت هذه الورقات التي أردنا أن تكون نبراساً وطريقاً ممهداً لمن أراد أن يطالع تاريخنا من مصادره ومظانه الصحيحة ليطمئن قلبه، ويزول عنه ما أشكل عليه وأبهم.

***أولاً: أسباب القصور في قراءة التاريخ:-**

يمكن أن نرجع التقصير الموجود في الكثير من الدراسات التاريخية المعاصرة إلى ثلاثة أسباب:-

١. أن كثيراً من أبناء المسلمين وقعوا ضحايا لما كتبه بعض المستشرقين والمتأثرين بهم من بني جلدتنا وغيرهم، الذين يتلقفون الأكاذيب المختلفة في تاريخنا الإسلامي على وجه العموم، وما يتعلق بآل البيت الأطهار والصحابة الكرام على وجه الخصوص. ثم يجعلون هذه الأباطيل عمدة فيما يكتبون وكأنها من المسلَّمات، معتمدين على كونها مُسطرةً في كتب التاريخ، وكأن وجودها في بطون الكتب كافٍ لإثباتها وتصديقها! كل ذلك من أجل الطعن في تاريخنا العظيم وإسقاطه، لنوايا سيئة ومقاصد عدائية ترمي إلى الطعن والتشكيك في ثوابت هذه الأمة، وإثارة الفتن والاستعداء بين أبنائها.

٢. غياب العلم الشرعي، وقلة الوعي، والجهل بمناهج علماء التاريخ وقواعدهم في تدوين وسرد الروايات التاريخية. فبعض العلماء لم يشترط في كتابه إيراد الصحيح والإعراض عن السقيم من المرويات، بل انتهج منهجاً محدداً أشار إليه في مقدمة كتابه، ليكون القارىء على بينة من الأمر.

إذن: من الأهمية بمكان أن نقرأ مقدمة أي كتاب ليتضح لنا منهج كاتبه، ومثال على هذا الكلام: كتاب تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري رحمه الله.

٣. ما يدندن به بعض الكتبة من إمكانية التساهل في رواية التاريخ: مقارنة بالتشدد في رواية الحديث النبوي، وهذا من أكبر الأخطاء في حق التاريخ. إن تاريخ آل البيت والصحابة رضي الله عنهم هو جزء من ديننا، لا يصح بحال أن نسوي بينه وبين تاريخ آخر، أو أن نتساهل في أخذه وروايته، لأن أثره سيعود حتماً على الدين.

ولكن هذا لا يعني وجوب معاملة جميع أخبار (الحقبة الأولى) من تاريخنا معاملة الأحاديث من حيث القبول والرد، بل يجب التفريق بين الأخبار والروايات.

فإن كانت هذه الأخبار والآثار عن الآل والأصحاب تحكي زهدهم وشجاعتهم وكرمهم وتضحيتهم وحسن خلقهم وجمال طبائعهم، ولم تكن خارجة عن الأصول العامة للشريعة، ولا هي مما تأباه الفطرة السليمة، فلا مانع من ذكرها وروايتها، لأنها لا تمس أصلاً شرعياً، ولا يوجد في روايتها ضرر أو مساس لمقام الآل الأصحاب.

أما إن كانت تلك الأخبار تتناول الفتن، أو بعض المواقف الحاسمة، أو بعض ما يسيء إلى مقام الآل والأصحاب، أو فيها شيء من المخالفة لأصول الشريعة أو غير ذلك، فهذا النوع من الأخبار لا بد من النظر في أسانيدها نظراً دقيقاً، ومحاكمتها محاكمة عادلة.

هذه هي الأسباب.

***ثانياً: قواعد في رد الشبهات حول تاريخ آل البيت والصحابة رضي الله عنهم:-**

يمكن تلخيص الشبهات الموجهة إلى تاريخ الآل والصحابة رضي الله عنهم إلى أربعة أقسام:-

القسم الأول: روايات وأخبار ضعيفة باطلة سنداً ومنكرة متناً، وهذه توجد بكثرة في بعض الكتب التي يجب الحذر عند قراءتها، لما فيها من مرويات تنسب إلى آل البيت والصحابة ما لا يتناسب مع مقامهم الرفيع ودرجتهم العالية.

والقاعدة في هذا النوع من الشبهات هي: «ردُّها وضربها عرض الحائط»، لأن هذه المكذوبات لا يصح أن يعتمد عليها المسلم في عقيدته ودينه، ويدع النصوص الصحيحة الصريحة التي لا يتطرق إليها شك أو ريبة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فها هو القرآن الكريم قد طهر آل البيت، وزكى الصحابة ومدحهم في أكثر من آية، فقال سبحانه وتعالى عن آل البيت: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ **الأحزاب: ٣٣** .

وقال سبحانه في حق الصحابة: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ **الفتح: ٢٩** ، فهذه الآيات وغيرها هي الأصل الذي ينبغي الرجوع إليه، وترك ما ينقل ويكتب من أحاديث وأخبار باطلة في حق آل البيت والصحابة رضي الله عنهم.

ويجب أن نعلم جيداً أن آل البيت والصحابة ليسوا بحاجة إلى آية أحاديث مخترعة ومكذوبة تبين فضلهم ، ففضلهم لا ينكره إلا مكابر أو جاحد.

القسم الثاني: أحاديث وأخبار في فضائل الآل والصحابة ومحاسنهم، حولتها أيدي الكذب والتزوير إلى مساوىء ومثالب.

ومثال على هذا القسم:-

* قتال أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأهل الردة بعد وفاة النبي Õ كان طاعة لرسول الله Õ في أمره بقتل من بدَّل دينه من المرتدين، فجاء البعض وجعل هذه الفضيلة والمنقبة من مساوىء الصديق رضي الله عنه والعياذ بالله، فزعموا- كذباً- أنه قاتل المسلمين، أو قاتل الذين أبوا أن يبايعوه ! وقد تناسى هؤلاء تأييد كبار الصحابة لهذا الفعل المبارك، وعلى رأسهم إمام أهل البيت في زمانه علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أشار عليه بالقتال. (انظر: الرياض النضرة ص٦٧٠).

* جمع الخليفة الثالث عثمان الشهيد الصابر Ó القرآن الكريم، فقد حولت هذه المنقبة العظيمة إلى مثلبة وطعن فيه، مع أن الأمة إلى يومنا هذا يصفون هذا الفعل المبارك بأنه فضيلة كبرى، ومنة عظمى على الإسلام، ولذلك كان علي Ó ينهى من يعيب على عثمان هذا العمل، ويقول: «يا أيها الناس، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل- أي في المصاحف - إلا عن ملأ منا جميعاً -أي الصحابة-، والله لو وليت لفعلت مثل ما فعل» (انظر: فتح الباري ٩/ ١٨).

وغير ذلك كثير مما يطول ذكره من الطعن وقلب الحقائق في حق آل البيت والصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

القسم الثالث:-

أن يكون أصل القصة والحديث صحيحاً، لكن البعض يزيد عليها الشيء الكثير، حتى تتحول من بضع كلمات إلى كتاب كامل فيه من الأباطيل والأكاذيب الشيء الكثير.

ومثاله:

* حادثة السقيفة: فهو في الأصل حديث لا يتجاوز الصفحة الواحدة، ثم تلقفتها بعض الأيدي وحولتها إلى كتاب كامل بقصد الطعن في الصحابة، كما فعل ذلك الجوهري في كتابه «السقيفة».

القسم الرابع:-

أن يكون الخبر سنده صحيحاً، ولم يعتره زيادة أو نقصان، ويكون في الخبر شيء من الأخطاء التي تقع من صحابي كونه غير معصوم كبقية الناس.

فنقول: من ذا الذي ما أساء قط؟ ومن له الحسنى فقط؟!

إن الاعتقاد الصحيح في الصحابة أنهم بشر يخطئون ويصيبون، لا ندعي لهم العصمة، والواجب ذكر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، فوالله لو قارنا هذا الخطأ بما لديهم من حسنات وصالحات لكانت كحبة رمل في كثبان الرمال، أو كقطرة ماء في عباب.

فإذا صحت الرواية، وكان ظاهرها وقوع الخطأ من الصحابي، فليلتمس المسلم لها أحسن المخارج والمعاذير، قال أبو زيد القيرواني: «والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب» (مقدمة رسالة أبي زيد القيرواني ص ٢٣).

ومما يدعو للأسف، أن بعض المغرضين يضخمون هذه الأخطاء حتى صار شغلهم الشاغل البحث والتنقيب عنها بكل سبيل، وكأنها القضية الفاصلة بين الحق والباطل، فمن عرفها فهو مؤمن، ومن أنكرها كان كافراً أو منافقاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

*** ثالثاً: قواعد في رد الشبهات حول آل البيت:-**

ينبغي على المسلم الحصيف الحذر من ستة أمور مهمة تتعلق بتاريخ آل البيت رضي الله عنهم:-

١. أن مكانة آل البيت الرفيعة قد سهلت على بعض أعداء الدين التسلل بين المسلمين وذلك برفع شعار محبة آل البيت وموالاتهم ووضع الأحاديث في فضلهم، ولحب الناس لآل البيت فقد تقبلوا هذه الأحاديث المكذوبة دون نقض أو تمحيص.

ولذلك فقد حذر أئمة آل البيت من هذا الأمر، وهو الكذب عليهم، فها هو جعفر الصادق يقول: «إن

الناس أولعوا بالكذب علينا». (بحار الأنوار ٢/ ٢٤٦).

ويقول كذلك: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذاب يكذب علينا، فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس» (جامع الرواة ٢/ ٢٢١).

٢. أن الأحاديث الموضوعة في فضائل آل البيت هي تماماً مثل ما روي في فضائل الصحابة، تفوق بعشرات المرات عدد الأحاديث الصحيحة في فضائلهم، لهذا يجب عدم قبول أحاديث الفضائل وإشاعتها إلا بعد الكشف عن أسانيدها ومعرفة صحتها.

٣. أن الفضائل الثابتة في حق آل البيت لا تعني انفرادهم وتخصيصهم بها دون غيرهم، تطبيقاً للقاعدة التي تقول: «الاختصاص بالمكرمة لا يعني نفيها عن الغير».

* فمثلاً: قول الله تعالى عن آل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣.

فهذه مكرمة في حق آل البيت، ولكن لا يعني هذا انتفاء هذه المكرمة في حق غيرهم، ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الصفة في حق المؤمنين، فقال عز وجل: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم».

فالتطهير شامل لجميع المؤمنين، ولكن الله خص أهل البيت بالذكر لفضلهم، وعلى هذا فَقِسْ.

٤. أن الاعتماد على النسب وحده لا يكفي، فإنه كما يجب علينا محبة آحاد آل البيت لإيمانه بالله، وقرابته من النبي Õ ، فإنه يجب كذلك بغضه بمقدار معصيته- إن وجدت - كحال أفراد سائر الأمة.

٥. حصر آل الرسول صلى الله عليه وسلم في علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، وفي تسعة من أبناء الحسين فقط، لا يصح بحال، وهذا الحصر يخالف الحقيقة، بل فيه غبن لكثير من آل البيت.

ومما لا شك فيه أن قصر القربة على المذكورين يفضي لا محالة إلى تقليل نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحق لنا أن نسأل:-

- أين أعمام النبي صلى الله عليه وسلم كحمزة والعباس رضي الله عنهم؟!
- أين أبناء أعمام النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن عباس، وجعفر الطيار وغيرهم؟!
- أين ذرية علي رضي الله عنه وهي كثيرة؟!
- أين بقية ذرية الحسين رضي الله عنه، ومنهم حفيده الشهيد: زيد بن علي بن الحسين، وسائر ذريته وأولاده؟!
- أين ذرية الحسن رضي الله عنه؟!
- أين حقوق هؤلاء جميعاً؟ وهل هم من آل البيت أم لا؟! وإن لم يكونوا منهم ، فمن الذي أخرجهم؟ ومن الذي تجرأ على هذه الفعلة؟!

أسئلة كثيرة تحتاج إلى نظر وتدبر.

٦. هناك أقوال كثيرة متناثرة في الكتب تزعم أن آل البيت ظلموا واضطهدوا على مر السنين من بعد وفاة النبي Õ ، ومروراً بعهد الخلفاء الراشدين إلى الدولة الأموية والعباسية، وما من أحد من سادات آل البيت إلا وقد تعرض للأذى بشتى صنوفه، إلى غير ذلك من الدعاوى.

ويجاب على ذلك من وجهين:-

أ- أنه لا خلاف بين أهل السنة والجماعة في توقير آل البيت وإجلالهم ومعرفة فضلهم وقرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأصل لا ينخرم إلا بدليل واضح، وإذا استقرأنا التاريخ وجدنا أن ما يدعيه البعض من استقصاد أهل السنة لآل البيت دعاوى باطلة لا تصح ولا تثبت،واسمع قول شيخ الإسلام ابن تيمية في حق قتلة الحسين رضي الله عنه؛ لتعلم منزلة آل البيت عند أهل السنة، حيث يقول رحمه الله: «وأما من قتل الحسين أو أعان على قتله أو رضي بذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». (مجموع الفتاوي ٤/ ٤٨٧).

فلا يصح أن يشوه المسلم تاريخ آل البيت الناصع ومحبة المسلمين لهم برواية باطلة وقصة مكذوبة.

ب- أن عظيم هذه الأمة وصالحها يبتليه الله تعالى ليرفع من شأنه ودرجاته في جنات النعيم، فإن وجد من آل البيت من تعرض للظلم أو القتل كما حصل للحسين رضي الله عنه، فهذا يكون من قبيل «إذا أحب الله عبداً ابتلاه»، وهذا الأمر ليس مقصوراً على آل البيت، بل إن الظلم قد وقع على من هم أعظم عند الله من آل البيت، وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، كنبي الله يعقوب وزكريا وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

كذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد أصابهم من البلاء الشيء الكثير، فقد هجروا من ديارهم، وجردوا من أموالهم، وعذبوا صنوف العذاب، فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً.

فالمقصود أن الأذى وقع على الأنبياء والصلحاء، والعظيم مبتلى، وليس هذا خاصاً بآل البيت دون غيرهم.

***رابعاً: من أهم الكتب المعتمدة في التاريخ:-**

من أراد الوقوف على مصادر التاريخ الموثوقة، فسيجدها في الكتب التاريخية والحديثية المسندة الخاصة بتراجم الرجال وسيرهم، سواء تلك التي اشترط أصحابها الصحة في سياقها، أو بالتعقيب على الروايات صحة وضعفاً، وهذه قد كفي مطالعها عناء البحث والتوثيق.

أو تلك التي يرويها أصحابها بالإسناد دون بيان حالها، فهذه يجب التحقق من صحتها.

ومن هذه المصادر التي يمكن أن يعتمد عليها في قراءة وصياغة التاريخ الإسلامي ما يلي:-

١. «**كتاب الطبقات الكبرى**» **لابن سعد**: وهو كتاب مهم لأنه رحمه الله يسوق الروايات بالأسانيد، لكنه لا يشترط الصحة، وهو يعتبر من أقدم الكتب ومصادر السيرة النبوية والتراجم.

٢. «**تاريخ خليفة بن خياط**»: وهو أصغر من كتاب الطبقات إلا أنه يمتاز بسلامة متونه من حيث إبراز الفتن وما وقع زمن الصحابة في الغالب.

٣. «**تاريخ الأمم والملوك**» **للإمام الطبري**: وهو تاريخ حافل بالأخبار والروايات، لكنه قد حوى الغث والسمين، ولا تثريب على الطبري لأنه أسند هذه الروايات.

٤. «**البداية والنهاية**» **لابن كثير**: وهو وإن كان ينقل من المصادر السابقة، إلا أنه يمتاز بتعليقات ابن كثير على كثير من الروايات صحة وضعفاً، كونه إماماً في الحديث.

٥. «**تاريخ دمشق**» **لابن عساكر**: وهو تاريخ حافل يختص بمن ورد دمشق، وهو يمتاز بإسناد كل حادثة.

٦. «**تاريخ الإسلام**» **للذهبي**: وهو كتاب كبير نافع جداً، ويمتاز بتعليقات الإمام الذهبي على الأخبار والروايات صحة وضعفاً.

٧. «**سير أعلام النبلاء**» **للذهبي**: وهو كتاب كبير يحكي سير أهم الأعلام في التاريخ الإسلامي من الصحابة إلى قبيل وفاة المؤلف.

٨. «**تاريخ المدينة**» **لابن شبه**: وهو كتاب نافع، اهتم مؤلفه بذكر الأسانيد لأغلب الأحداث.

٩، ١٠، ١١ «تاريخ ابن خلدون»، و «المنتظم في التاريخ لابن الجوزي»، و «العواصم من القواصم» لابن العربي وهو فريد في بابه .

هذه أهم الكتب التاريخية، وهناك جملة من الكتب لا تختص بالتاريخ، إلا أن أصحابها قد ضمنوها بعض الأحداث المهمة في التاريخ، وخاصة الحقبة الأولى، مثل : كتب الحديث والمسانيد والمعاجم.

كذلك من مصادر التاريخ: كتب تراجم الصحابة ومن أهمها: الاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر.

مع الاهتمام ببعض الدراسات التاريخية المعاصرة، في هذا المجال.

***خامساً: كتب شوهت التاريخ الإسلامي:-**

لا يغيب عنا أن بعض الكتب يجب الحذر والحيطة منها عند قراءتها، أو جعلها مصدراً في البحث، لما احتوته من أخطاء فادحة خطيرة، وروايات مكذوبة، وأحداث باطلة.

والحقيقة ان هذه الكتب كتب تهريج أو أدب مخلوط عسله بسمه، وأصحابها من أهل السمر والمزاح ، لا يبالون بصدق ما رووه أو بكذبه.

ومن هذه الكتب التي يجب الحذر منها:-

١. «**الأغاني**» **للأصفهاني**: فهو كتاب شعر وسمر وطرب لا يمت إلى التاريخ بصلة، حشاه مؤلفه بكثير من الكذب والمجون، والشعوبية المقيتة، والطعن في خلفاء الأمة، وفي بعض شخصيات آل البيت، فكيف يمكن جعله من مصادر التاريخ المعتمدة؟!

٢. «**العقد الفريد**» **لابن عبد ربه**: وهو كتاب في الأدب والقصص الطريفة ليس إلا، فلا يصح جعله مصدراً تاريخياً.

٣. «**الإمامة والسياسة**» **المنسوب لابن قتيبة**: وهو كتاب مكذوب عليه، وفيه من الكذب والروايات الباطلة ما يشهد بالحذر منه.

٤. «**مروج الذهب**» **للمسعودي**: وهو كتاب خالٍ من الإسناد ومملوء بالخرافات والأعاجيب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب مالا يحصيه إلا الله تعالى» (منهاج السنة ٤/ ٨٤).

٥. «**شرح نهج البلاغة**» **لابن أبي الحديد**: ومؤلفه ضعيف عند علماء الجرح والتعديل، بل إن صاحبه ألفه من أجل الوزير ابن العلقمي الذي كان سبباً في قتل مليون مسلم في بغداد على يد التتار.

٦. «**كتاب السقيفة**» **لسليم بن قيس**: ومؤلفه شخصية مجهولة، والطريق إلى كتابه ضعيف، وفيه من التشويه لآل البيت الشيء الكثير، فهو يذكر بعض الروايات التي تحط من قدر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه البطل الشجاع.

٧. «**تاريخ اليعقوبي**»: وهو يعتمد في رواياته على الواقدي وأبي مخنف، وهذا كافٍ في الحذر منه وغير ذلك من الكتب.

* **ختاماً**: فلابد من ضرورة تقديم منهج الكتاب والسنة عند الحديث عن آل البيت والصحابة، والاهتمام بصحة النقل والرواية، مع الاعتماد على الكتب التي اعتنت بالتاريخ الإسلامي، والحذر من المراجع غير الأصلية في التاريخ مما يترتب عليه أخذ معلومات مشوهة وباطلة.

والحمد لله رب العالمين.

مبرة الآل والأصحاب - ضاحية عبد الله السالم - قطعة ١ - شارع أحمد الهندي - منزل ٢١ - هاتف: ٢٥٦٠٢٠٣
فاكس: ٢٥٦٠٣٤٦ الخط الساخن: ٩١٨٤٣٣٣ - ص.ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي 71655 الكويت
www.almabarrah.net Email: almabarrh@gmail.com